حنيفا مسلما

ندعو الله بشيئين فى كل صلاة، أحدهما فى بدايتها والآخر فى نهايتها

أما الذى فى بدايتها فهو: "اهدنا الصراط المستقيم"

وأما الذى فى نهايتها فهو: "اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم

وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم"

ويبدو من هذا الدعاء أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام ومن اتبعوه

قد رضى الله عنهم وبارك فيهم

والمسلمون الذين يتبعون محمدا عليه الصلاة والسلام يرجون من الله تعالى الوصول لنفس المكانة

والذى يبدو أنه هو الهداية إلى الصراط المستقيم الذى دعونا به فى البداية

كما فى الآيات (3) فى الفقرة التالية

ومن هنا ينتاب المسلم الفضول لمعرفة الكثير عن إبراهيم عليه السلام

وتحديدا ما الذى فعله ليصل هو وأتباعه إلى هذه المكانة العالية

ومن فضل الله تعالى أن القرآن الكريم به كثير من الآيات التى تتحدث عن إبراهيم عليه السلام

وعند البحث فى هذه الآيات، ندرك أننا لا نعرف معناها على وجه الدقة

ولابد من الاعتراف بذلك، لأن أول خطوة فى طريق العلم أن يستطيع الإنسان التفرقة بين ما يعلمه وما لا يعلمه

وكل آية من الآيات التى تتحدث عن إبراهيم عليه السلام

بها مسألة غامضة ولغز وتفتح الطريق إلى البحث فى مسائل أخرى

وكل هذه المسائل ليست متداولة فى الخطاب الدينى ولا يعرف منها المشايخ إلا قليلا

أو أنهم يضعون لها تفسيرات سطحية غير ملائمة للسياق وللآيات الأخرى

وسوف أتناول فى هذا المقال بعض هذه الآيات العظيمة وأرجو من الله تعالى أن يوفقنى فى ما أكتب

(1) قال تعالى: "وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا قل بل ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين"

(2) وقال تعالى: "ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفا واتخذ الله إبراهيم خليلا"

(3) وقال تعالى: "قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيما ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين * قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين * لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين"

(4) وقال تعالى: "وأن أقم وجهك للدين حنيفا ولا تكونن من المشركين"

(5) وقال تعالى: "إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة من الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين"

(6) وقال تعالى: "بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم بغير علم فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين * فأقم وجهك للدين حنيفا فطرت الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون"

(7) وقال تعالى: "قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون * يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده أفلا تعقلون * ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم والله يعلم وأنتم لا تعلمون * ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين * ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون * يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون * يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون"

(8) وقال تعالى: "وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين * وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين * فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربى فلما أفل قال لا أحب الآفلين * فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربى فلما أفل قال لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين * فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين"

(9) وقال تعالى: "وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة"

(10) وقال تعالى: "حنفاء لله غير مشركين به ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق"

أول كلمة تلفت الانتباه فى الآيات التى تتحدث عن إبراهيم عليه السلام هى كلمة "حنيفا"

والمفاجأة أن معنى هذه الكلمة فى اللغة العربية هو "مائلا"

فكيف تأتى هذه الكلمة فى سياق المدح؟ ومعناها هو عكس كلمة "مستقيما" الذى ندعو الله أن يهدينا الطريق المستقيم

فكيف يأتى الميل والاستقامة وهما كلمتان متضادتان فى مقام المدح والترغيب؟

ألم يكن من الأولى أن يوصف إبراهيم عليه السلام بكونه مستقيما وليس مائلا؟

يقول بعض المفسرين: حنيفا جاءت بمعنى مستقيما، مثلما كان بعض العرب يصفون المريض واللديغ بالسليم

وأنا أستبعد هذا التفسير لأن العرب كانوا يصفون المريض بالسليم تفاؤلا وتشجيعا له

أى أنهم يستبدلون بالواقع وصفا أفضل وليس أسوأ

يقول بعض المفسرين: مائلا إلى طريق الحق

ولكن عند قول كلمة مائلا، نريد معرفة مائلا عن ماذا، وليس مائلا إلى ماذا

أى، ما هو الطريق الذى مال عنه إبراهيم

والطبيعى والمنطقى والعقلى وما يؤيده الآيات الأخرى هو أنه بالتأكيد مال عن الباطل

أو مال عن الشر أو مال عن الشرك أو مال عن كل ذلك

والمعنى الأقوى هو أنه مال عن الشرك

لأن الآيات بها "حنيفا وما كان من المشركين"، و "حنفاء لله غير مشركين به"، و "حنيفا وما أنا من المشركين"، و "حنيفا وما أنا من المشركين"

والمتأمل لقصة إبراهيم عليه السلام فى الآيات رقم (8) أعلى هذه الفقرة يجد أن أول قصته هى أنه مال عن الشرك

أى أن أهم وأول خطوة لإبراهيم عليه السلام هو عدم الانسياق مع قومه، والميل عن ما يفعلونه من شرك

قال تعالى: "وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناما آلهة إنى أراك وقومك فى ضلال مبين"

وبعد أن مال عن الشرك، أدرك بفطرته أن الله الذى خلقه لابد ألا يكون محدودا بزمان ومكان كالشمس والقمر

لأن خالق الكون لابد أن يكون مطلعا على كل زمان ومكان ليسيّر الكون، وهو خلق الزمان والمكان، فلابد أن يكون فوق كل ما ندركه من مكان وزمان

ولكن ما معنى الشرك بالله؟ هو عبادة غير الله. والعبادة هى الدعاء والطاعة

ولكن الابن يطيع أبيه والموظف يطيع مديره والمرأة تطيع زوجها والمملوك يطيع سيده والسجين يطيع مأمور السجن

فهل يعد هذا شركا بالله؟

ليس ذلك لأن الشرك بالله هو طاعة غير الله فى أعمال الشر

ولكن ما معنى عبادة الأصنام، وهى لا تأمر بخير أو شر؟

يبدو أن مع كل صنم كهنة يدّعون أن الصنم يأمر بكذا من أفعال الشر

أو يحصّلون الأموال من البسطاء بزعم إرضائهم للصنم

ومن هنا فإن الشرك بالله هو التوجه بالدعاء لغير الله وطاعة غير الله فى الشر

ولكن كيف عرف إبراهيم عليه السلام أن ما يفعله قومه خطأ؟

عرف ذلك من الفطرة التى فطر الله الناس عليها كما فى الآيات (6) أى الضمير الإنسانى والعلم الذى ألهمه الله لكل إنسان

قال تعالى: "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها"

وقال تعالى: "وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين * أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون"

والفطرة تختلف تماما عن هوى النفس كما فى الآيات (6)

وكل إنسان يعرف جيدا الفرق بين فطرته السليمة وبين هوى نفسه الخبيثة

وليس بحاجة لأى شيخ أو كاهن ليعرّفه ذلك

فالصفة الأولى الهامة التى ينبغى أن يتحلى بها كل مسلم هى الحنيفية وهى عدم الانسياق وراء ما يفعله الناس من الشر والباطل والشرك

وكل إنسان يعرف ذلك جيدا عن طريق ما ألهمه الله تعالى به وقت خلقه، قال تعالى "ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها"

وقد رأينا فى هذا الزمن عجبا ممن يتبعون الصعاليك والمشايخ والكهنة والطواغيت بدون تفكير

فمنهم من حرق السيارات بناء على فتوى ممن يلقبونه بأعلم أهل الأرض الذى أفتى أن حرق السيارات عمل سلمى

ومنهم من حرق كنائس ومحلات وصيدليات الإخوة المسيحيين انسياقا وراء أوامر وأفعال حزبهم وجماعتهم

ومنهم من فتح السلاح الآلى على المواطنين المدنيين فى الشارع لأن فلانا الذى بايعه أن يعبده من دون الله أمره بذلك

ومنهم من سعى فى قتل أفراد الجيش والشرطة والقضاة الذين يحمون ويدافعون عن المسلمين الصالحين الشرفاء

ومنهم من انساق وراء قومه فمنع دفن متوفى

ومنهم من انساق وراء آلهته فى سبّ العلماء الكبار واتهامهم بالباطل مثل الشيخ محمد سيد طنطاوى رحمه الله الذى دُفن فى البقيع صاحب كتاب التفسير الوسيط للقرآن الكريم

والشيخ سعد الدين هلالى حفظه الله الذى كان أول إنسان فى هذا العصر يعلمنا الفرق بين الدين والفقه والقانون

ومنهم من يتلقى الأموال من أصنامه ليسبّ أولى الأمر من المسئولين المحترمين الذين يقومون على مصالح الناس

ومنهم من يتلقى ألفين دولار من الطاغوت ليقتل ويسرق الآمنين الشرفاء فى أى مكان فى العالم يشير إليه طاغوته

قال تعالى: "وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون"

وبعد أن يقرر الإنسان أنه سيكون حنيفا لا ينساق وراء أى إنسان أو جماعة أخرى فى الشر والباطل والشرك

بناء على فطرته السليمة التى ألهمه الله بها وقت أن خلقه

هنا فقط يمكنه الانتقال إلى الخطوة الثانية وهى طلب الهداية من الله أن يهديه الصراط المستقيم

والاستعانة بالكتب السماوية فى ذلك

و ينبغى على المسلم أن يفعل هاتين الخطوتين فى كل أمر من أمور حياته

كما فى الآيات (5) قال تعالى: "إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم"

وللمقال بقية بمشيئة الله فى مقال آخر بعنوان "النبى الأمى"

والله تعالى أعلم.

أمين علام 9 يوليو 2020